

البعد الصوفي في الشعر الملحون المغاربي

- دراسة معجمية لبعض النماذج -

*The Sufi Dimension in Maghrebi popular Poetry*

*- A Lexical Study of Some modals -*

د. فاسي عمر

جامعة طاهري محمد - بشار -

omarfaci@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠٧/٢٦ تاريخ القبول: ٢٠٢٥/٠٩/١٠ النشر: ٢٠٢٥/١٢/١١

ملخص:

ما كان الشعر الملحون ظاهرة أثرت سلبا في الوسط الاجتماعي، وإنما رافدا من روافد الاكتساب المعرفي في شتى العلوم، وهذا حين ألقى بظلاله على جميع ألوان الشعر كالحكمة والغزل والثورة والتصوف... إلخ. وحتى لا يفقد مكانته في الفضاء الأدبي نجده قد أخذ قسطا لا يستهان به في الدراسات اللسانية. أعالج في أوراقى البحثية هذه الأهمية القصوى التي يتميز بها الشعر الملحون مبرزا البعد الصوفي وما يوظفه الشاعر الشعبي من وحدات لسانية قد تفي بالغرض وتؤثر في المتلقي حاملة دلالات تليق بما يرمي إليه الشاعر، فتلك هي المسألة. هل وفق الشاعر في نسج نصه الشعري مراعي الحقل الدلالي المناسب التركيبية المعجمية التي اعتمدها. للإجابة عن هذا، اتخذت نماذج مختلفة لفحول هذا اللون من الشعر، وكلها تصب فيما يعالجه البحث، وبعد الاستقصاء خلصت إلى أن شعراء الملحون أحسنوا توظيف الوحدات المعجمية في نظمهم حتى يتم التواصل مع المتلقي، وأن للشعر الشعبي (الملحون) أثر بالغ في تربية الفرد وتعليمه متعلما كان أو غير متعلم وكذا إلى شح الدراسات والبحوث والاهتمام الزهيد بهذا اللون الشعري.

الكلمات المفتاحية: الشعر - الملحون - الصوفي - المفردات - المعجمية - نماذج.

**Abstract :**

Al-Malhoun poetry was not a phenomenon that negatively affected the society, but rather a tributary of knowledge acquisition in various sciences, and this was when it cast its shadow over all types of poetry such as wisdom, love poetry, revolution, Sufism, etc. So as not to lose his position in the literary space, we find that it has taken a significant part in linguistic studies. In my research papers, I address the extreme importance of popular poetry, highlighting the Sufi dimension and the linguistic units employed by the popular poet that may fulfil the purpose and influence the recipient, carrying connotations appropriate to what the poet aims for. That is the question.

Did the poet succeed in weaving his poetic text, taking into account the appropriate semantic field and lexical structure he adopted?

To answer this question, I took various models of this type of poetry, all of which contribute to what the research addresses and after investigation, I concluded that the Malhoun poets made excellent use of lexical units in their poetry, in order to communicate with the recipient, and that popular poetry (malhoun) has a great impact on the upbringing and education of the individual, whether educated or uneducated, as well as the scarcity of studies and research and the scant interest in this type of poetry.

**Key words :** Poetry - Malhoun - Sufi - Vocabulary - Lexicography - Models.

## ١ . مقدمة

يعد الشعر تعبيراً تلفظه أحاسيس الشاعر وعواطفه، ولم يختلف اثنان على أن الشعر كان ديوان العرب ورمز وجودهم وهويتهم، ومثلوا فيه كل أغراضهم، وترجم الأحداث وأخذ للمجتمع صوراً في كل الحالات والمواقف.

إن الشعر من الفنون الأولى عند العرب، وهو يختلف عن الكلام العادي لما يتميز به من وزن وقافية وتميز كذلك ببلاغته وما يحسنه من استعارة وتشبيه ونظم وكناية وأنواع البديع. وهو كلامٌ يعتمد على وزن دقيق تحتويه موسيقى خاصة وميزة تطرب لها الأذن فتلك هي الموسيقى الشعرية. يقول ابن خلدون: "أعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنون يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فأما الشعر فمنه المدح والمجاء والثناء...<sup>١</sup> (عبد الرحمن بن خلدون. ص: ٤٢٤)

فالشعر وعاء لمعان لغويّة تؤثر في المتلقي عند قراءته، أو حين سماعه، وأيُّ كلام لا يحتوي على وزنٍ شعريٍّ لا يُصنّف ضمن الشعر. وحتى يخضع الشعر لصفة الشعرية ويستقيم فلا بد أن يمثل لعناصر معينة كالفكرة والعاطفة والخيال والنظم والأسلوب ويتعين غرضه في القصيدة سواء كانت وصفاً أو مدحاً أو غزلاً أو هجاء ويلتزم بعمود الشعر أو المعايير الأساسية للقصيدة الشعرية كاستقرار الوزن وهو عدم الخروج عن بحر القصيدة واستقرار قافيتها.

خاضت القصيدة العربية عدة محطات وتباين مستوى الشعر فيها انطلاقاً من العصر الجاهلي ثم صدر الإسلام وعصر بني أمية ثم العصر العباسي وبعد ذلك الانحطاط بعد أن هوى نجم الحضارة العربية الإسلامية وكثر اللحن في لغة الضاح وضعف معها الأدب بجميع مواصفاته. لقد تلوث اللسان العربي وحاد عن قواعد اللغة بسبب اللحن الذي تفسى في أوساط العرب والأعاجم من الخليج إلى المحيط وهذا نتيجة مدخلات مختلفة، وكان للمتعليم وغير المتعلم ألا يخفي بما جادت به قريحته في التعبير عن أحاسيسه، ووظف لغة الأم كما اكتسبها - ملحونة - في نظم الأشعار وإبراز بيان لسانه. لقد كان شعره ملحوناً إلا أنه توشح بالمحسنات البديعية والبلاغة عموماً وحسن السبك يمثل ما حسن به الشعر الفصيح لدى أسلافه. وتمثل شعر الملحون لدى الشعراء في إبراز طاقاتهم الفنية في الأمثال الشعبية وفي الشعر الذي تناول كل المواضيع.

كان للبعد الصوفي وقع في تربية الأجيال وذلك مما يحتويه كالحكمة والزهد والورع وتربية النفس والتوسل. فهل أعطى شاعر الملحون لنصه الشعري حقه في مستويات اللغة الصوتية والتركيبية والمعجمية، ذلك ما حاولت معالجته مؤكداً على الوحدات اللسانية المعجمية معتمداً نماذج لبعض فحول الشعر الملحون وما جادت به قريحتهم في نتاجهم الشعري وما نسجوه واستحسنته العامة ومدى توظيفهم للوحدات المعجمية المناسبة لبلوغ غايتهم.

## ٢- الشعر الملحون.

إن من أثر اللحن في لسان العرب أنه انتشر حتى احتوى الشعر، وأصبحت العامية الوسيلة الأساس في التواصل وكان للشعر الملحون باع في الأدب الشعبي فما هو الشعر الملحون؟

يقول محمد الفاسي صاحب كتاب "معلمة الملحون" في التعريف بالشعر الملحون: إن ما يتبادر إلى ذهننا هو أنه كلام فيه لحن، وهذا اشتقاق باطل لأن ما يقابل الكلام الفصيح ليس الكلام الملحون وإنما اللهجات العامية ولم يرد هذا عند الكتاب القدماء لا بالمشرك ولا بالمغرب. والذي يراه صواباً هو أنهم اشتقوا هذا اللفظ من التلحين أي أن هذا الضرب من الشعر وضع ليتغنى به قبل كل شيء، وما يؤيد هذا هو قول ابن خلدون في الفصل الخمسين من المقدمة في "أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد" حيث تكلم الشعر باللغة العامية فقال: "وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على الصناعة الموسيقية"<sup>٢</sup> (محمد الفاسي ١٩٨٠. ص: ٢٩٠).

ومن أسماء هذا الشعر "الموهوب" دلالة على أن هذا الشعر هبة من الله فهو ليس مجرد نظم وإنما إلهام وكذلك "السجية أو الشجية"<sup>٣</sup> (نفسه. ص: ٣٠٠)

ووقفت على هذا في قول شاعر الملحون الجليلي لمترد رحمه الله في زرب قصيدة "خلخال عويشة":  
 (ويلا سالوك عن ناظم "الشجيرة"... قول فصيح اللغي لحبر الجليلي.... يغفر ذنبي وُزِلْتُي لكريم المتعال.)  
 ويطلقون عليه كذلك إسم "الكلام" كأن الشعر هو الكلام الحقيقي الذي يستحق أن يحمل هذا الاسم وما دونه فهو لغو وكل هذا يدل على ما  
 لهذا الشعر من قيمة في المجتمع. ويقول في هذا "الجيلالي لمترد" وفي نفس القصيدة لجاحد هذا الشعر:  
 (والجاحد معمي ما أدى إفادة... ما ساق ماهر اللغا جبحو خالي... ما يَفْقَهُ رَمَزٌ ولا يحق معنى عُكَلِي هُزْتَال.)  
 (اي والله ساب "الكلام"..... ومضوا اهلوا وتفرقو وليس جبر والي..... قَوَاتُ البَدْعَةِ والشيوخُ كثرو والفرُّ قَلَالُ.)  
 ومهما يكن، فهناك من لا يتفق مع صاحب المعلمة في أن الشعر الملحون وُضِعَ للتغني به ولا علاقة له باللحن، فهم يرون أنه سمي بالشعر الملحون  
 لأن كلماته بها لحن بمعنى أنها حادت عن اللسان العربي الفصيح ولا يستحسنون ذلك.  
 ولم يخص بلدا واحدا وإنما جميع البلاد العربية فهناك عامية سوريا ولبنان ومصر والعراق ودول الخليج وبلاد المغرب العربي من ليبيا إلى موريطانيا ولكل  
 بلد شعراء شعبيون وشعر شعبي ملحون يتفننون في نظم القصائد فيه وفي كل الأغراض، في الغزل والوصف والمدح والثناء والحكمة والثورة... الخ  
 وتستحسنه العامة وتذوقه، أما الشعر الفصيح يخص النخبة والمثقفين والأدباء إلا أن هؤلاء يستحسنون الشعر الملحون كذلك ويتذوقون مواطن الجمال  
 فيه، فلا نستغرب حين قال شاعر أم كلثوم "أحمد رامي": أخشى على العربية من "بيرم" (بيرم التونسي)....

#### ١ - خصائصه:

تتصف مفردات الشعر الملحون باختلاف ضبط الشكل، حيث يخرج نطق بعض المفردات عن قواعد اللغة العربية الفصحى، فإن كنا نعرف  
 أن من صفات اللغة العربية أنها تبتدئ بمحرك، ففي الشعر الملحون يجوز لنا أن نبتدئ بساكن فمثلا ننطق الكلمات الآتية في الفصحى على هذا  
 الشكل: كِتَاب، مُرَبَّع، صَغِير، أما في الشعر الملحون تنطق هكذا: كُتَاب، مُرَبَّع، صَغِير.  
 - إذا كانت الكلمة تنتهي بتاء مربوطة فإن هذه التاء لا تنطق، فبدل أن نقول السلامة بنطق التاء، فنقول: السلام(ة) بحذف التاء.  
 - إذا كان كل حرف بعده حرف مد(الألف العادية والألف المقصورة والواو والياء) فهو يُنطق بالحركة المناسبة لحرف المد نحو:  
 باب، على، عيون، بيت... فإنها تنطق على هذا النحو: بَاب، عَلَى، عُيُون، بَيْت.  
 - الألف إن لم يكن فوقها أو تحتها همزة فلا تنطق مطلقا وهي كالألف التي نضعها في آخر "دخلوا" في الفصحى. ومثال هذا في العامية الف "ال"  
 التعريف وألف فعل الأمر نحو: الباب تنطق لِبَاب، و فعل اقطع تنطق قُطْع....  
 - المحذوف كالألف بمعنى أن الحرف الذي يليه يكون مفتوحا، ونستعمل المحذوف في الكلمات التي فيها مد في العامية لا يوجد في الفصحى مثلا:  
 بُكَاتُ أي بَكْتُ وسُكَّار أي سُكَّر وأحيانا نجعلها في الكلمات التي فيها مد في الفصحى مثلا: عيشة وأصلها عائشة.  
 ومن خصائص الشعر الملحون أنه يلتقي الساكنان فإذا وجدت حرفين متتابعين بدون شكل فهما مسكنان مثلا: عند رأسه شأن نقرأها في العامية  
 "عندُ راسو شأن" فالنون والdal في "عند" مسكنان.<sup>٤</sup> (نفسه. ص. ٢٤)

ويذكر محمد الفاسي الكثير من الحالات التي يأخذ فيها الشعر الملحون شكلا مغايرا للفصحى وهذا مما جعل اللحن يغير من ألفاظه وينزاح  
 عن قواعد النحو والحركات الإعرابية، وبالرغم من هذا التحول إلا أن الشاعر الشعبي طوَّع هذه الكلمات وأعطاه إيقاعا موسيقيا خاصا وتفعيلات  
 غنائية يستحسنها و ينتشي لها المستمع والمتذوق للشعر الملحون...

#### ب - أغراضه:

لم يقتصر الشعر الملحون على غرض خاص واحد وإنما تنوعت أغراضه من مجتمع إلى آخر، فالجتماع البدوي ليس هو المجتمع الحضري، وبادية  
 الهضاب تختلف عن بادية الصحراء من حيث الطبيعة والأحداث والأعراس والخلفية الثقافية والتاريخية، ومن الأغراض التي تطرق لها الشعر الملحون  
 تمثلت في المدح والتوسل والغزل والحكمة والتصوف والحماسة والفخر ونستهل هذه الأغراض بما يلي:

✓ المدح:

المدح نقيض الهجاء وهو ذكر المحاسن كالأخلاق الكريم والشيم كالحكمة والكرم والشجاعة والعفة والعدل والصدق والأمانة والوفاء سواء عند الفرد أو الجماعة.<sup>٥</sup> (عروة عمر.ص.١٢٤)

وكان المدح غالباً في السيرة النبوية والاقتداء بأخلاق المصطفى سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذا بعض المشايخ والعارفين بالله أين يظهر الشاعر خصال وكرامة أولياء الله الصالحين قدس الله سرهم، وأحياناً بولادة أمور المسلمين من سلاطين وملوك ووزراء. وقد برع كثير من الشعراء في هذا الغرض بنظم قصائد عدة ومنهم من تخصص فيه كسيدي لخضر بن مخلوف وسيدي عبد العزيز المغراوي والفقهاء أبو خريص والحاج أحمد لغيره بل رحمهم الله جميعاً.<sup>٦</sup> (محمد الفاسي.١٩٨٦.ص:١٣٣)

ومن النماذج المذكورة في هذا الغرض يقول سيدي لخضر بن مخلوف (١٤٧٩ - ١٥٨٥) - دفين نواحي مستغانم بالجزائر - في مدح وشكر سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني:<sup>٧</sup> (قاضي محمد.١٩٢٨.ص٢٤)

يا ريس لولاية ظنيتك حائي ..... لله غيتني يا قُطْب الصُّلَاخ  
يا شجرة النُّقا ليكُ سُنْدَتُ كتافي..... فالجاءَ جَبْتُ ليكُ من يثُرو للواخ  
عاري عليكُ يا جَبَّار المكسور..... يا نَدْهَةُ الشَّدَايدُ مولى بغداد  
فالملكُ وين رَحْتُ نصيبكُ مذكور..... من فاسٍ للْعَجَم من بر لكراد  
بَهْواكُ عايروني قالوا مدّاخ

و يقول الشاعر ابن التريكي (١٦٥٠ - ١٧٥٠) في حب النبي صلى الله عليه وسلم والصلاة والسلام عليه:<sup>٨</sup> (عبد الحق زويوح.٢٠٠١.ص٥٥)

صلّوا عليه.....مادامت الدنيا  
ما لو شبيهة..... سَلْطَانُ الأنبيّا  
لو صَبَّتْ فيه.....نَنْظُرُ بَعِينيّا

#### ✓ التوسل:

توسل شعراء الملحن بسيد الخلق النبي صلى الله عليه وسلم ونظموا قصائد عديدة في التوسل، فتجد الشاعر يصف ضعف نفسه و قلة حيلته متوسلاً إلى الله تعالى أن يجبر حاله ويفرّج عنه ويؤتاه من فضله. ومن أشهر القصائد التي تغنى بها الكثير من المنشدين المغاربة قصيدة "التوسل" للشاعر سيدي قدور العلمي (١٧٤٢ - ١٨٥٠) وحزنتها كآلاتي:<sup>٩</sup> (عباس الجيراري.٢٠٠٩.ص١٥٧)

يا من بلاني عافيني رَحْمَتُكُ ائال ..... خَفَّ حَمْلِي نَتَسَرَّحُ يَرْثَخِي عَكالي.

ويقول في مطلع القصيدة:

يا الْوَاحِدُ بالصَّرْحَةِ عَمَّ ضيقُهُ لَحال ..... جلّ مولانا من شبه لئال عالي  
غيتني يَتَفاجأ كَرَبِي ائلوح لهوال ..... خاطري يَتَهَيّ قَلْبِي يُعوذ سالي  
ذخيل لكُ آمولاي بالنبياء ولرسال ..... ذخيل آسيدي نَجاة كل والي  
ذخيل لكُ بالسادات الصالحين لفضال ..... كافة لَقْطاب وجراس ولبدالي

#### ✓ الغزل:

يعد الغزل من أهم الأغراض التي تناولها الشعراء سواء في الفصحى أو الملهون، وتفننوا في وصف المعشوق ومحاسنه، فنسجوا قصائد في أتم وأجلى المحسنات البديعية والتشبيهات، ويعد الشاعر بلخضر ( مديوني قويدر المدعو بن تربية) (١٨٦٠ - ١٩٢١) ممن كتبوا في الغزل ويقول في إحدى القصائد:

يا من قلت تُسألني راني مهموم.....وماني لاهي بيك نعطيك سُوالي  
من يوم صدت "باگه" ماجاني .....واحسن عؤني يوم فرقت غزالي  
يا حسرة مُباركة عين الميشوم.....يوم غدات هُدت مرسمها خالي  
يا من راك تغن بكلام اللوم.....يُحسن عونك ما صرا لك كي حالي  
يا بلخضر غي صبر في هاد الي.....وهاذ الشّي مسبوقة من عند العالي.

#### ✓ الوصف:

لم يقتصر الشعر الملهون على أغراض معينة وإنما لامس كل ما يعيشه الفرد في مجتمعه وما يخفي ويعلم من أحاسيس وما يواجه من حالات، وكان لشاعر الملهون ما يقول في وصف الطبيعة ومحاسن المرأة، ويقول السي التهامي لمدغري (ت ١٨٥٦) - وهو من رواد شعراء الملهون وكان جليسا للسلطان عبد الرحمن وصديقا لابنه ولي العهد- في قصيدة الصَّبُوحِي وهو يصف القمر والنجوم والفجر والأزهار وحربتها:

١٠: (عباس الجيزاري ٢٠١٠ ص. ٨٧-٨٨)

عُثم الصبوحِي يا ندم واسطاب رضيع الكاس ولطيار في مغناها.....لا ترتي يا ساقِي كُب وآرى ربي غفار  
و يستهل القصيدة بهذه الأبيات قائلا:

شوف البدر الضاوي عريس تاك فحجة وكواكبو يرهاها.....دارت دورة مقباس به على يمينه ويسار  
شوف المشتري ليه سوق عامر يرتقاب العاشقين والع بشرها.....شوف الزحل رمى علحدود عصير المسطار  
شوف المريخ رخي التام شوفا لترات لابس عتود من سناها.....شوف النسرین فطليعة لفجر يعطيوك لخباز  
شوف الزهرا زهروا خدودها وزهرت ليه وعلى حُسْن ضياها.....شوف الكيوان كوا بكيتو لعشيق بلا نار  
شوف الغرار غُرتو يهز العاشق ومنارتو تُشالي بضيها.....شوف نسيمو يري علبطاح بعسكر جرار

ويضيف قائلا:

شوف لفجر زكب فوق لطلال.....نعنية قالم من ولاد سماعيل  
شوف غلامو منشور قتال.....سيفو على جيوش الديجان اسقيال  
شوف ايزارو فوق لبطاح منشور وشوف جواهر اسكبت من نداها.....في جياذ غصان الروض سلكتها ياقوتو مختار.

#### ✓ الحكمة:

اخترت من شعر الحكمة بعض الأبيات للشيخ العربي المكناسي ( وهو من تلاميذ سيدي قدور العلمي، عاش بتلمسان وتوفي مسنًا بالعرائش أيام السلطان يوسف ) من قصيدة " لوصاية " وحربتها كآلاتي:

لبلا فالخلطه والريح فلاعزال.....من تقول حبيبك تلقاء سم قاتل

ويبدأ قصيدته بهذه الأبيات:

الصمت حكمة والهامل فلسان مهمال.....لاغنا يصادف شي من هو قسييف لاصل  
كل صامت يلبس عز لبها ولجمال.....من كتر حسو فشباك اللعين حاصل

لا تبوح بسرّك للخائنين لردّال.....ياخذو سيفك ويضربوك للمقاتل  
لعباد سباب خلاها القيل والقال.....الجموع توصّل لقباح لمواصل  
ما بقي من عملٍ ليه فصحبّو الرّمّال.....باللسان يجبّك والقلب ليك خاتل

## ✓ التصوف:

تعد ظاهرة التصوف من الدراسات التي تناولها العلماء المسلمون من العرب وغيرهم والمستشرقون والقدماء والمحدثون ولم يستقروا على مفهوم واحد وتفرعت رؤاهم في تحديد المفهوم، وعليه سنحاول ذكر بعض الآراء في تعريف التصوف.

التصوف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من "صوف" الدلالة على لبس الصوف، ومن ثم جاء المتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام "صوفيا". وزعم بعضهم من القدماء والمحدثين أن الصوفية تنسب إلى أهل الصفة وهم جماعة من التُسّاك كانوا يجلسون في ذكة المسجد بالمدينة المنورة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهناك من قال أنهم في الصف الأول من صفوف المسلمين في الصلاة ومنهم من قال هم من قبيلة بني صوفة البدوية، ومنهم من قال أنهم أخذوا اسم الصوفية للباسهم للصوف.<sup>١١</sup> (ماسينيوس و مصطفى عبد الرزاق. ١٩٨٤. ص. ٢٥)

وصيغة الجمع "الصوفية" ظهرت عام ١٩٩ للهجرة وكُتب لهذا الاسم أن يكون له شأن وبعد قرنين من الزمن أصبح اسم الصوفية يطلق على جميع أهل الباطن من المسلمين كما هو الحال الآن وفي غضون ذلك أصبحت عبادة الصوف من أخص أزياء المسلمين من أهل السُنّة.

يقول ابن القيم الجوزية (ت ٧٥٦هـ) في "مدار السالكين":

" واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم أن التصوف هو الخلق" وقال أيضا: " إن هذا العلم مبني على الإرادة في أساسه ومجمع بناءه، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهي حركة القلب ولهذا سمي علم الباطن، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح، ولهذا سمي علم الظاهر."

وبذلك تبين أن أولى خطوات التصوف في سبيل التكوين العلمي كان عبارة عن نشأ علم الأخلاق الإسلامي.<sup>١٢</sup> (نفسه. ص. ٢٧)

ومن خصائصه نذكر ما يلي:

- الإسناد: يرى الصوفية أنه يصل سلسلة شيوخهم بالنبي عليه الصلاة والسلام.
- طبقات رجال الغيب: يرى الصوفية أن العالم يدوم بقاؤه بفضل تدخل طبقة من الأولياء المستورين وعددهم محدود، وكلما قُبِض واحد منهم خلّفه غيره. وهم ثلاثمائة (٣٠٠) من النقباء وأربعون (٤٠) من الأبدال وسبعة (٧) من الأئمّة وأربعة (٤) عمد ثم قطب واحد (١) وهو الغوث.<sup>١٣</sup> (نفسه. ص. ٤٤-٤٥-٤٦)

يقول سعد بن عبد الله التستيري (ت ٢٨٣ هـ) وهو أحد أئمة التصوف في المشرق:

أصولنا سبعة أشياء: <sup>١٤</sup> (محمد رشيد قديرة. ٢٠١٤. ع. ٤٠. ص. ٧١)

- التمسك بكتاب الله

- الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- أكل الحلال.

- كف الأذى.

- اجتناب المعاصي.

- التوبة.

- أداء الحقوق.

ويعرّف الشيخ عبد القادر الجيلاني التصوف ويقول:

"التصوف هو الصدق مع الحق وهو الخلق مع الخلق."

وقال أيضا: " هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرّيات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق وملازمة الإيثار ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم والمعاونة في أمر الدين والدنيا." وبيّن أن التصوف يقوم على مجموعة من الخصال كالسخاء والرضا والصبر والسياسة والفقر وكل هذه من صفات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.<sup>١٥</sup>

### ٣ - دراسة معجمية لبعض النماذج:

#### ١ - الشيخ لخضر بن خلوف.

هو الأخضر بن عبد الله بن عيسى الشريف الإدريسي، المغراوي نسبة، فهو شريف النسب، ينتهي إلى سلالة الإمام علي كرم الله وجهه، فهو شريف إدريسي، أما مغراوة فإنها بلاد نشأته، وقد صرح التاريخ بأن المغراوة بطن من زناته، وأن الرئاسة كانت لها قبل الإسلام، وفي صدره إلى عهد الموحدين، واشتهر منهم ملوك تلمسان ووهران وشلف ومعسكر والأغواط. يلتحق نسبه بمجده عيسى الذي انتقل إلى منطقة الشقران ناحية مستغاثم، وهذه سلسلة نسبه حسب ما ذكرها الإمام السيوطي رضي الله عنه: هو عيسى بن الحسن بن يعقوب الشريف بن عبد الله بن عمران بن صفوان بن يسار بن موسى بن يحيى بن موسى بن عيسى بن إدريس الولد بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن البسيط بن علي كرم الله وجهه.<sup>١٦</sup> (بخوشة محمد بلغوتي. ١٩٥٨. ص ٣٧٠) إن الشعر الصوفي ليس كغيره من الأشعار إذ يحمل دلالات لا يفقهها إلا من تطوعت له المفاتيح المعجمية لهذا اللون من الشعر إذ يُقرأ من وجهه الخلفي كما يقول أهل الصوفية وهذه أبيات لأبي مدين شعيب الغوث (٥٠٩ هـ - ٥٩٤ هـ) قطب زمانه دفين مدينة تلمسان بالجزائر<sup>١٧</sup> (عبد القادر سعود وسليمان القرشي. ٢٠١١. ص ٢٠٠)

والكأس ترقص والعقار تشعشت.....والجو يضحك والحبيب يزار  
والعود للغيث الحسان مجاوب.....والطائر أخفى صوته المزمائر  
لا تحسب الزمر الحرام مرادنا.....مزمارنا التسبيح والأذكار  
وشرابنا من لطفه وغناؤنا.....نعم الحبيب الواحد القهار  
والعود عادات الجميل وكأسنا.....كأس الكياسة والعقار وقار  
والله أرحم بالفقير إذا أتى.....من والديه فإنه غفار  
ثم الصلاة على الشفيق المصطفى.....ما غرّدت بلغاتها الأطيائر

وسار على هذا النهج شعراء الملحنون والشعر الشعبي عامة، ووظفوا وحدات لسانية من رحم الصوفية والمعجم الصوفي ونستهل هذا التحليل المعجمي بهذه الأبيات لشاعرنا الشيخ سيدي لخضر بن خلوف.

أحسن ما يقال عندي.....بسم الله وبك نبدا  
أحمد يا العربي.....ما عزك يا عين وخذ  
قد النحلة كي تسدي.....تبني شهدة فوق شهدا  
أحمد أي سيدي.....صلى الله عليك لبدا

لقد اختار الشيخ لخضر بن خلوف مفردات بسيطة غنائية قد يستحسنها المتلقي من العوام، فهي سلسلة في فونيماتها وفي إيقاعها، وبسيطة في دلالاتها مما يجعلها تؤثر في المستمع وسهلة للحفظ والتواتر بين الناس.

ويهمم بالذات الحمديّة قائلا:

نُحْمَد رب السّما والأرض.....راوي عن لُقْطاب جُمْلَة

اللّوخ والعرش بشوف لَحْضي.....والحَرْف الّلي بغيت يثلى

يستعمل الشاعر كلمات ومصطلحات تتعلق بالحقل المعجمي الصوفي "اللوخ" و"العرش" والقلم" أو الحرف وهي من الوحدات اللسانية التي تتميز بحقل دلالي خاص. ويقول راجيا شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام: <sup>١٨</sup> (بخوشة محمد بلغوتي ١٩٥٨. ص ١١٢)

لَا غَيْرُكَ مَنَّاغُ يَمْنَعُ.....من سطوة مَوْلٍ لموالي

وَلَا غَيْرُكَ شَفِيعُ يَشْفَعُ.....في مَنْ هو عَزَّةٌ بَحَالِي

نجد الشاعر دائما يتميز ببساطة المفردات السهلة فتجد كلمة "عَزَّة" بتسكين التاء وحذفها نطقا بمعنى ذلك الشخص الذي لا قيمة له ولا وزن وهي مفردة متداولة على لسان العوام، ومفردة يَمْنَعُ بتشديد النون بمعنى ينقذ من عذاب النار.

#### ب - سيدي عدة بن تونس

هو عدة بن تونس من مواليد ١٨٩٨ بضواحي مستغانم، تربي على يد شيخه الشيخ أحمد مصطفى بن عليوة المعروف بـ "الشيخ العلاوي" درقاوي شاذلي الطريقة كان شيخا للزاوية العلاوية الكبرى، توفي سنة ١٩٣٤. حافظ الشيخ عدة بن تونس على سير الزاوية العلاوية بعد وفاة شيخه والتي كانت تعج بالمريدين والفقراء آنذاك. يقول سيدي عدة في رحيل شيخه ما يلي: <sup>١٩</sup> (عدة بن تونس. ص ٥٣)

عَلاشْ شَوَّرْ سيدي وارتاح نور الماخ.....علاشْ خلا بصري طمّاح ما صُغى لي

عَلاشْ يجفاني روح الراخ زهو لُقْراخ.....طُبْ قلبي عَزَّ الصُّلّاح ولبدالي

ضاق صدري من غير مَزاح صرّت نَوّاح.....روف يا سيدي وروّاح شوف حالي

هاج بحري كترت لريّاح موج نطّاح.....مَرْكِي متخلخل لَلّواح من هوالي

عاري عليك يبقّى ملّتاح سهم لقراخ.....كالهُدَف مَرشَق بلزّماح والنّبال

يا العلاوي مسكك فاخ طُبْ لجراخ.....غَيْثِي يا سيدي نرتاخ من غلالي

تتميز هذا الأبيات في رثاء الشيخ العلاوي بحسن سبكها وسلاسة وقعها الموسيقي الغنائي واختار فيها الشاعر الشيخ سيدي عدة فضاء معجميا يجمع وحدات لغوية واسعة الاستعمال في القصيدة الشعرية الشعبية الصوفية، فتجده في كلمة العيون يستعمل مفردة المّاح وبصري، وللعين مرادفات كثيرة في الشعر الملحون نذكر منها : المّاح لنّجال، لغّماز، لبّصار، لثّماذ، لخدّاق، لرمّاق، لرمّاش، لغّناج... الخ

ويستعمل كذلك مصطلح "لبدالي" وهي مرتبة من مراتب شيوخ الصوفية. ونجد ذلك في قصيدة التوسل للشيخ سيدي قدور العلمي إذ يقول فيها:

دخيل لك بالسادات الصالحين لفضال.....كافة لُقْطاب ولجّراس ولبدالي.

فالأقْطاب والأجْراس والأبدال كلها مراتب في المشيخة الطرقية الصوفية، فالشاعر سيدي عدة ينتقي في شعره من الكلمات ما يصب في المعجم الصوفي. ويقول "هاج بحري" واصفا ذلك الاضطراب الذي هز وجدانه وكيانه، مشبها ذلك بالعاصفة التي جعلت من مركبه مفكك الألواح (قطع الخشب التي صنع منها المركب) وهذه إشارة إلى ما يخلج صدره من زفّرات عند فراق شيخه.

وكثيرا ما تجد شعراء الملحون يوظفون هذه التشبيهات، كما يقول بن سليمان في قصيدة "الشهادة" وهناك من يسميها "الرعد":

الرعد زم طبلو بعد قناطر الصمامم.....والبرق سل سيفو يخبّل في خيول لمزان

والريح فارس يشالي.....عن عقاب العلفات على لوغى مشمّر.

و إضافة إلى ما سبق، نلاحظ استعماله لحرف (صوت) الحاء، وكأنه ينحو نحو الشيخ التهامي لمدغري الذي كان يسمى بـ "حيّاح الحاء" ويتجلى هذا في هذه المفردات : ارتاح، المّاح، طمّاح، الرّاح، لفرّاح، الصلّاح، مزّاح، نواح، لريّاح، نطّاح، اللّواح، ملّتاح، لقراخ، لرمّاح، لجراخ، نرتاخ..... فالشاعر سيدي عدة بن تونس يتميز بسلاسة نسجه وإيقاعه الموسيقي وانتقاء معجمية صوفية خالصة في الشعر الملحون.

## ج - بن مسايب

هو أبو عبد الله محمد بن مسايب ولد بتلمسان وينحدر من أسرة أندلسية عاش في القرن الثامن عشر بتلمسان وتميز بشعره في الغزل والمدح بالفصحى وبالشعر الملاحون كذلك ذاع صيته في المغرب العربي كافة توفي بتلمسان عام ١٧٦٨، ومن شعره في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم والتشفع به انتقيت هاته الأبيات من قصيدة "الحرم يا رسول الله" حيث يقول فيها:

الحُرْمُ يا رَسولَ اللهِ.....لامانْ يا حَبِيبَ اللهِ  
الحرم حيثُ عندك قاصدٌ.....يا سيدي رسولَ اللهِ  
الحرم جيت عندك قاصدٌ.....ياصاحبَ الشِّفاعةِ لَمُجَدِّ  
خوفي بزلِّي نتمزِّدُ.....يُومَ لَوْقُوفٍ عندَ اللهِ  
عاري عليك يا محمدٌ.....عارِ لَوْصِيفٍ عن مولاة  
عاري عليك يا بلقاسمُ.....يا صاحبَ اللِّوا والخاتمِ  
راني على فُعالي نادِمٌ.....ما درتُ باشْ نَلْقَى اللهُ  
ماتَّبْتُ ما قُرِيتُ اللازمُ.....بليسَ عَرْنِي بَهْواة

يتوسل بن مسايب في قصيده هذا ملتصبا من سيد الخلق الشفاعة ناسجا شعره بتفعيلات قصيرة محكمة الوزن والإيقاع وموظفا مفردات سهلة المنال والفهم للعامة مستعملا دوالا خاصة مثل الحُرْم، زَلِّي، نتمزِّد، لوصيف بمعنى "العبد"، اللِّوا، الخاتم فكلها كلمات متداولة باللسان الدارج بين الناس، ولم يستعمل المهمل من الألفاظ والغريب عن عامية المغرب العربي.

## د - سيدي عبد العزيز المغراوي:

هو عبد العزيز المغراوي من مغراوة بتافيلالت، من مؤسسي الشعر الملاحون، نزع إلى فاس في أيام المنصور السعدي، كان طويل القامة حتى كانوا يضربون هذا المثل "كل طويل خاوي إلا النخلة والمغراوي" مارس القضاء وكان قاضي القضاة في زمانه وله العديد من القصائد في المدح والغزل والربيعيات وتغنى بشعره الكثير من فناني الغناء الشعبي الجزائري، وهذه الأبيات من قصيدة في مدح المصطفى عليه أزكى الصلاة وأزكى السلام إذ يقول فيها:<sup>٢٠</sup> (عباس الجيراري ٢٠٠٨، ص ١٢٦)

الصلاة والسلام على خيار الجناس.....سيدنا محمد مَنوَّرَ لمجالس  
الحمد لله نشكرو وعن قضاة لا باس.....ولغرام قلبي بقرايجو بمجالس  
ولهوى خمري يا لامي بلا كاس.....في خضرة الحبوب في أعلى لمجالس  
بلا هوائي نبوح بسري اعيان للناس.....ضاق صدري في خمر الحب بلا موانس

.....

ياحافظ ذا الطَّرَز السَّاطع لمَنهَج.....حافظك ويعزُّك بالجوِّد وفراجة  
في مديح الهادي نور لبها لمَنوَج.....لهلال الكامل بالزين ولهباجة  
به صال المغراوي خلثو وبمَنج.....في محافل عشقوا بالشوق ولهياجة  
زاودوه بدعاكم لله يا جلالس.....يرحمو مولانا في ظلمة الروامس  
ويخشرن في ظل اعلام الشفيع فالناس.....مع جماهر لسلام في حنة لغرايس

القصيدة في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، والمفردات المهيمنة في هذه الأبيات توحى بتضلع الشاعر في اللغة ومعجم الشعر الملاحون خاصة، فيعد حمد الله يوظف كلمة قرايجو وهي جمع لكلمة لقريجة وهي منازل الشعراء بقصائدهم في مجالسهم الخاصة، ويرمز لسكرة حب رسول الله بالخمر دون

كأس ، وغير مرغى بىوح بسرل للعلان بهذا الحب والصباة اللل ضاق بها صدره بخرم الحب دون أنىس وهو يقصد حبه لرسول الله صلى الله عله وسلم. فالخرم والكأس والحب وحرور المحبوب(سىلنا رسول الله) والإباحة بالسر والمجالس كلها وحرلات معجملة صوفلة. وفل خالمة القصلدة وزربه(بمعنى حفظها بذكر صاحبها) بالفاظ - والفاظ هو الراولة فى الشعر العربى قلىما - هذا الطرز الساطع بمعنى الواضح لمنهج أى المرئب فهو يعزك وعزه من ملىح المصطفى عله السلام. ولىذكر اسمه ملىخرا بهذه الولة اللل ىتباهى بها فى مجالس الشعراء، راجلا من الجلأس الللاء بالرحمة فى ظلمة الروامس أى ظلمات القبور والروامس جمع كلمة الرمس وهو القبر، ولىخرشه فى ظل رالة شفلىع الأمة مع جماهىر المسلمىن فى حنة الخلىل.

وظلف المغراوى قلىرا وافرل من المصطلحات الصوفلة وهذا لكفاءته فى نظم الشعر بلغة محكمة المعانى واللىلال فى نسلج ملىق ومنسجم ىطرب السامع من حلى حسن السبك وغازة المعارف، وبهذا ىبقى هذا الشاعر من فحول شعراء الملىحون. لقل ظهر البعل الصوفى فى الشعر الشعبى بألىات ممبزة فى جملى مستويات اللغة من الأصوات إلى التركىب إلى المعجم، وكانت وحرلته اللسانلة تحمل للىلال تصب فى قالب هذا اللون من الشعر مما جعله ىترك أثرا فى النسلج الاجتماعى ومرسلا للتربلة الإسلاملة ولىعاللمها.

#### ٤ - خالمة

إن للبعل الصوفى وقع فى الشعر الملىحون مما جعله ىثرل المعارف للى العوام وىنمى رصىلهم الثقافى، فمن خلال هذه الأوراق البلىة اسلىلصلى نلالى أوجزها فىما ىلى:

- غازة اللألىف فى هذا اللون من الشعر منذ ظهوره وبخاصة فى المغرب العربى .
- لملز معظم شعراء الشعر الملىحون بثقافة عالة وبخاصة فى علوم اللىن واللىصوف، معظمهم صوفىون وطرقىون.
- ىمتاز الشعر الملىحون بكل مواصفال الشعر الفصىح من حلى موسىقى الشعر والبلاغة واللىلان عامة.
- انلىشاره بىن أفرال الملىمع للىل على أثره وتألىر فى عامة الناس.
- كان لشعراء الملىحون قىمة ومكانة عند أوللاء الأمر وعند كل من كان بىلده سلطة القرار.
- وظلف شعراء الملىحون منظومة معجملة تواضع علهلأ أفرال الملىمع.
- معظم المفردال اللل وظلفها الشعراء عربلة صلىحة الأصل، لكنها شابها اللحن باللىوالر لأسباب ملىللفة.
- لم ىقتصر هذا اللون من الشعر على إقلىم معىن وإنما اسلىع رقلته رغم قلة وسائل اللوالل.
- فى ملىلواه حظ للملىعلم ولىر الملىعلم، حلى أن هناك قصلل وأشعار راقلة من حلى المستوى العلمى والمعرى والفنى، وبالمقابل أشعار بسىطة التركىبة وسهلة الفهم واللىللل.

وما ارلألى واستحسنل من لوصلىال أوجزها فىما ىلى:

- الالتمام بالشعر الشعبى وهذا الإكلار من اللراسال والبلىل فى فضاء الثقافة الشعبلة واللراسال اللسانلة عموما.
- للىلىع دور النشر واللوزىع على الالتمام بهذا الجنس الألبى لأنه من ملىونات ثقافة الأمة.
- إلىلال كل البلىل والمؤلفال واللراسال المقلمة من طرف الأسالذة والطلبة البالىل فى شبكة اللوالل الاجتماعى حلى ىلسنى للباللل البلىل واللىاسة دون عناء.
- لنظلم مللىقلال ونلوال علملة حلى ىلم اللوالل بىن البالىل وذوى الالتمام.
- الىضاع هذا اللون الألبى إلى لراسال لسانلة أكاللملة علملة.

#### المصادر والمراجع

- ١ عبد الرحمن بن خلدون. مقدمة ابن خلدون. مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية. القاهرة. مصر. ص: ٤٢٤.
- ٢ محمد الفاسي. معلمة الملحون مطبعة أكاديمية المملكة المغربية. القسم الأول. ج ١، ١٩٨٦. ص: ٢٩.
- ٣ - نفسه. ص: ٣٠.
- ٤ - نفسه. ص: ٢٤.
- ٥ - عروة عمر. حياة العرب الأدبية. الشعر الشعبي. دار مداني للنشر. الجزائر. ص: ١٢٤.
- ٦ - محمد الفاسي. المرجع السابق. ص: ١٣٣.
- ٧ - الكنز المكنون في الشعر الملحون. قاضي محمد. المحامي الشرعي بتيارت. المطبعة الثعالبية. الجزائر. ١٩٢٨. ص: ٢٢٤.
- ٨ - أحمد بن التريكي. الديوان. جمع وتحقيق: عبد الحق زريوح. مطبعة ابن خلدون للنشر والتوزيع. تلمسان. الجزائر. ط ١، ٢٠٠١. ص: ٥٥.
- ٩ - عباس الجيراري. موسوعة الملحون. ديوان سيدي عبد القادر العلمي. (المعروف بسيدي قدور العلمي). جمع وإعداد لجنة الملحون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية. الرباط. ٢٠٠٩. ص: ١٥٧.
- ١٠ - عباس الجيراري. موسوعة الملحون. ديوان السي التهامي لدغري. جمع وإعداد لجنة الملحون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية. الرباط. ٢٠١٠. ص: ٨٧ - ٨٨.
- ١١ ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق. التصوف. دار الكتاب اللبناني. مكتبة المدرسة. بيروت. لبنان. ١٩٨٤. ص: ٢٥.
- ١٢ - نفسه. ص: ٦٧.
- ١٣ - نفسه. ص: ٤٤-٤٥-٤٦.
- ١٤ - محمد رشيد كديرة. من مجلة قوت القلوب. التي تصدر من مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية. ص: ٧١.
- ١٥ - عبد الله خضر أحمد. شعرية الخطاب الصوفي - ديوان عبد القادر الجيلاني أنموذجا. عالم الكتب الحديث. إربد، الأردن. ٢٠١٦. ص: ١٢٤.
- ١٦ - بخوشة محمد بن الغوثي: ديوان سيدي الأخضر بن خلوف، شاعر الدين الوطن، مطبعة الشمال الإفريقي الرباط ١٩٥٨، ص ٣٧.
- ١٧ - أبي مدين شعيب. الديوان. إعداد وترتيب: عبد القادر سعود/سليمان القرشي. ط ١. ٢٠١١. لبنان. ص: ٢٠.
- ١٨ - سيدي لخضر بن خلوف. المرجع نفسه. ص: ١١٢.
- ١٩ - عدة بن تونس. ديوان آيات المحبين في مقامات العارفين. ط ٣. ص: ٥٣.
- ٢٠ - عباس الجيراري. موسوعة الملحون. ديوان سيدي عبد العزيز المغراوي. جمع وإعداد لجنة الملحون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية. الرباط. ٢٠٠٨. ص: ١٢٦.